أبعاد بلا وطن

قصة بقلم جورج شامي

تعيسة جدا وكئيبة جدا سماء حزيران وايلول، انها أتعس وأشد كآبة من سماء اي أرض .

خضراء العينين ، شقراء الشعر ، وردية الخدين ، رشيقة القامة، دخلت ، وجلست قبالتي تطفح بشرا وسعادة .

ـ أمس عشنا معا طوال الليل ...

ـ حبذا ... كيف ؟

ـ صدقني !

ـ في الحلم طبعا !

ـ واي حلم !... قلت بلهجة المتلهف !

ـ هاتي حدثيني ...

* * *

« في طريق الصدفة رأيتك ، جالسا فوق قمة بهية يحيط بك الاخضر والازرق . كنت برفقة زوجي والاولاد . ورأيت نفسي فجأة مشدودة اليك .

ثم اخذت اتخلص من عائلتي .. سحبت يدي من ذراع زوجي ، واتجهت نحوك الى فوق ... لحق بي أطفالي ، ولكنني أسرعت ... ناداني زوجي فرددت عليه بالتفاتة ثم صرخت له :

ـ لا تنتظرني أنا صاعدة الى فوق ...

ولاحقني صوته ممزوجا بصراخ أطفالي :

ـ ارجعي يا مجنونة ، الطريق الى فوق صعب وشاق .

ولكني ابتعدت عنهم غير مبالية في درب لولبي ، رحت أدور فيه حول التلة صاعدة نحوك . واذا بي أنفصل تماما عن زوجي وأولادي فلا أعود ارى واحدا منهم ، ولا اعود اسمع صوتا ولا صراخا . وكنت كلما صعدت ازددت اعجابا بالمكان ، وازددت احساسا بالتقرب منك . وحين تبينتني ، ملأ الفرح وجهك ، ولكنك ظللت جامدا دون حراك ، وواصلت أنا القفز بلهفة مدفوعة اليك .

وحين أدركني الفرح بانني اقتربت منك واجهت صدمة ، انتهت الدرب على بعد امتار من المرتفع الذي تجلس فوقه ... كانت تدور حوله وهو مرتفع كجذع سنديانة املس . وتملكتني الحيرة كيف أصل اليك . ورحت أناديك :

ـ ساعدني يا ربيع ، مدّ يدك واسحبني اليك .

ولكنك كنت تنظر اليّ ولا تجيب ، ومرت لحظات وعيناي مشدودتان الى عينيك ... ثم أرسلت اليّ قبلة وقلت :

ـ دعيني يا امراة مع اوراقي وعالمي ...

فاجبتك :

ـ يا رجل ، انا ايضا جئت اليك مع اوراقي وعالمي لاضمها الى اوراقك وعالمك .

فاجبتني بحزن :

ـ بيني وبينك مسافة ... فلا تحزني !

فتراخيت حينذاك عند اقدام المرتفع وجلست على الارض . فسالتني :

ـ ماذا تفعلين ؟

فلم ارد ، فكررت السؤال بانفعال ، فلم أرد . فرميتني بوردة حمراء ، ومرت هنيهات قبل ان اتطلع اليك بحنان وأجيبك :

ـ أعرض شعري للشمس .

فسالتني :

ـ لماذا جئت اليّ ؟ الى جبهة المواجهة ؟ فأجبتك :

ـ بأجنحة الحب جئت اليك وهي لا تعرف حدودا وتهزأ بالجبهات!

فقلت لي :

ـ ما أبهى النقاء في عينيك !

... وسكت لحظة ثم سالتني :

ـ هل شعرك بهذا البهاء ؟ هل تسمعيني اياه ؟

فسالتك برضى :

ـ وهل تقرأ لي أنت من دفاترك ؟

فهززت رأسك بالايجاب ، ثم جلست عند طرف المرتفع وانزلت رجليك من على جنبيه وأخذت تقرأ لي ثم سكت بين الحين والحين وتستمع الى شعري ...

ـ هل تذكرين ماذا قرأت لك وماذا قرأت لي ؟

ـ طبعا لا .

ـ ما رأيك لو تحول الحلم الى واقع ، الا تحملين شعرا فيأوراقك؟

ـ اجل ...

ـ ... وهذه صور من واقعي ...

ومددت يدي الى خزانة ورائي وسحبت أوراقي ، واكملت :

ـ تقرأين شعرا واقرأ نثرا ، ولندع نهاية الحلم الى آخر اللحظات ...

ـ لا ... لا ... انتهى الحلم دون ان يكتمل . لقد مددت اليك يدي مستغيثة فلم تستمع الى نداءاتي . تحجرت فلم تمد يدك اليّ لتأخذ بيدي . لم ترفعني اليك . وظللت اناديك ولا ترد ، ولا تبدي حراكا حتى غارت الصورة في عالم اليقظة .

ـ لن اتركك في اليقظة .. سأكذب الحلم . لن اتخلى عنك .

سآخذك بكلتا يدي وبكل فرحي وعطفي .

ودنوت منها أمرغ شفتيّ بشفتيها ووجهها وعينيها وشعرهـــا وأتمتم :

ـ تبدأين اولا ...

وتتناول أوراقها وتقرأ :

غابت الشمس عن واديّ
أين أنا ...؟
في أي غروب ...؟

* * *

تهدّلت الظلمات
تظلل شحوبي ...
فاي كهف يرجع صداي ؟

* * *

انشلت بي رؤيتي
انمسحت الابعاد
فاي بداية هي نهايتي ؟

* * *

تشربين قهوة ؟ مرة أليس كذلك ؟

ـ أشرب ...

أتناول سماعة الهاتف وأطلب اثنين من القهوة مع علبة دخـــان فرنسي من « الجيتان الاصفر » .

ـ تدخنين ؟ (يرن جرس الهاتف)

ـ لا .. لا ادخن ...

أتناول السماعة وانصت ثم اقول :

ـ لا علم لي باعتداء على الجنوب ... لا معلومات لديّ ...

أقفلت الخط غير مبال . وبدأت بقراءة ما في دفاتري :

* * *

السنون بالعشرات مضت عليه يعمل بصمت بين سحب كثيفة من البخار الخانق والماء الساخن ورائحة البؤس وكثير غيرها من المساحيق المنظفة .

كان يلعب دورا مهما ، وان يكن عاقا ومجهولا في اناقة كثير من الرجال والسيدات والآنسات دون ان يشعر أحد منهم بوجوده .

الشتائم كانت تكلل هامته مرات في اليـــوم عقابا على خطأ او اهمال او سوء تصرف ، او فشل ولو تافه .

ثقته بنفسه أضعف من أن يتجرأ على ذكر وجوده . قناعته تعميه ، ويظن انه خلق ليكون واحدا ممن يساسون بالعصا او بالسوط .

عدة مرات وقعت له مفاجآت في مهنته ، فأعطى المثل على الامانة والصدق والاستقامة ، وكلها صفات باتت أندر من النقد النادر فـي البلاد الاشتراكية .

هو لا ينسى الخاتم الماسي الفخم الذي وجده في معطف احـد الرجال ، ولا ينسى ان صاحب الخاتم كان كريما معه فأعطاه خمسيـن ليرة ، سرّ بها كثيرا لانها كانت توازي مرتب اسبوع ، ولكن غبـــاءه حرمه من ثروة تقدر بالوف الليرات .

أما تلك الجميلة التي وجد السوار المرصع بالالماس والياقوت في جيب معطفها ، فكانت اكرم بمكافأته بمئة ليرة . تلك كانت المرة الثانية التي جاءه فيها الحظ ثروة تقـدر بالالوف فرفضها باسم الامانـــة والاخلاص ، والاستقامة ، واكتفى بمئة الآخرين عليـه شحيحة ككسرة الخبـــز .

بعد ذلك تحول الحظ عنه من حبة الخردل الى الصفر . وجـد مرة جوارب نسائية من النايلون معطرة ، ووجد مرة بعض اصابع المطاط الصغيرة ، ظنها في بادىء الامر بالونات فراح ينفخ احداها عبثا وكادت اوداجه ان تنتفز وهو يتلهى بها .

ووجد مرة اخرى ورقة برتقالية عليها اسطر من وحي السجن وهو ما زال يذكر هذا الجزء منها :

« سمعت وانا أدفع الى القاووش صوتا خافتا من الداخـل يردد ببحة حزينة كئيبة فيها آهات مصحوبة بأوتار الناي :

« ... ان نامت عيون البوليس
عيون الاستخبارات ما تنمشي ...
... وان نامت عيون الاستخبارات
عيون المباحث ما تنمشي ...
... وان نامت عيون المباحث
عيون التحري ما تنمشي ...
وان نامت عيون التحري
عيون الجيش ما تنمشي ...
... وان نامت عيون الجيش
عيون الرئيس ما تنمشي ... »

وقرأ في طرف آخر من الورقة البرتقالية المطوية كلمات للسجيـن ذاته :

« وادركت ان للجدران والحديد عيونـا لا تنام . فتراخيت على فراش رقيق جدا من القش ، وعلى وجهي الذي يتحداه المصبـــاح الكهربائي في السقف محرمة من الورق ، واستسلمت للنوم ، لانسى اشياء كثيرة ، اولها الحرية المصفدة بالاغلال ، وثانيها الجور الـذي لحق الحق ، وثالثها الانحطاط في معاملة المذنب .

« وكانت الانسانية ملزوزة الى بعضها كما تلزّ القطعان في الحظيرة بفارق واحد ، وهو ان الانسانية كانت تنام على عتبة المرحاض ، وفي حراسة من هم أتفه بكثير من الصراصير التي تأنف الاقدام على ان تدوسها لئلا تلطخ بها احذيتها ..

« وحين حلقوا شعر رأسي ، أدركت ان مرحـــلة القهر بدأت وعقبتها مرحلة الاذلال فالاضطهاد فالتعذيب » .

* * *

قرع الباب ، فتحت ، دخل صبي القهوة ، قدمها لنا وخـرج . قمت من مكاني الى قربها . رافقتني بعينيها ، فانحنيت أطبع قبـــلة وراء أذنها . وأتمتم بهمس :

ـ أما زلت حزينة لاني تخليت عنك في الحلم ، يا اكبر احلامي !

فترسل آهة مصحوبة بكلمات آمرة :

ـ دعنا نكمل ...

ـ فعلا .. هذا دورك !

وتواصل القراءة بعد ان تقلب أوراقها :

* * *

نداءات في غيبي ،
يبتلعها ضجيج .
نواقيس موت
تقرع كل لحظة
انتحار يصم الآذان .
خوف اخرس
يخنق الانظار
رياح تعبق ...
أفراح تضيع ...

* * *

ـ فرحك لن يضيع ، ربما افراح غيرك هي التي تضيع ...

ـ كيف ؟!

ـ حنانيك اسمعي ...

قبل ان اباشر القراءة رن جرس الهاتف . الصوت متهدج عـلى الطرف الآخر . بلاغ عسكري رقم واحد !! انقـــلاب ؟! مستحيل !! اعتداء ؟! اين ؟! في وطني ...

اذن المخابرة الهاتفية عن شائعة الاعتداء صحيحة !

نهضت عن كرسيها واخذت تحملق بي . عيناها جامدتان في الفراغ ، وتلاحق ما أكتبه على الورقة امامي :

« صباح اليوم دخلت قوات من العدو تقدر بلواء منقول ومدرع ، القطاع الاوسط من منطقة الجنوب ، مركزة على محور عيناتا ومحور العديسة ـ الطيبة . تصدت لها قواتنا بكل الاسلحة فجرّنا نسفيات العديسة . توقف العدو . لا تزال قواتنا المتمركزة في القطاع مشتبكة مع العدو على محور بيت ياحون . مني العدو بخسائر غير معروفة » .

وانهارت على المقعد من جديد تتمتم بنرفزة :

ـ ما أسوأ حظي ! حتى صورة اليقظة يمحوها الاعتداء . فهمت الان السر .. فهمت معنى ترددك في تلبية نداءاتي !!

رننت الجرس . ودفعت البلاغ الى الاذاعة . ورددت :

ـ هجوم منتظر ، مهد له العدو منذ ايام . خلق الذرائع ووزعها !

لطمت على وجهها كالنادبات النائحات في الجنائز :

ـ اولاد الحرام لن يدعونا نستريح ! حصرمة في أعينهم ، شوكة في حلوقهم !

ـ دعك من هذه الثرثرة . هذه ضريبة لا بد منها ، نحن شركاء في ضياع فلسطين . وعلينا حق الشراكة في دفع الغرم . دعينا نكمل. اننا نسرق لحظاتنا ، ولا نستمتع بها ! مصير فلسطين ليس بين ايدينا ! لا تجزعي !

ـ اقرأ ... فها انا أستمع اليك .

* * *

اظافرها الطويلة مفروزة في وجهه ، والدماء تنسحّ من جراحه فتغطي عينيه وتحجب رؤيتها عنه !

تشبث بها بكلتا يديه وسحبها عن الباب الى الداخل بشراسة .

كان العمى منسدلا أحمر على بصيرته وبصره ، وفوق السرير رماها بتفاهة ووضع الوسادة فوقها وجلس جلسة المنتقم . فلتمت خنقا من ارادت أن تشوه وجهه بغيرتها . لتمت من كانت تحب وجهه وشعره !

كانت رائحة عطرها مسفوحة على الفراش وحولها اشياؤها الصغيرة تستنجد بالحركات وتستغيث بالحياة على الموت .

شقيقه انقذها من تحت الوسادة ، دفع به فرماه ارضا وانعشها ، ونهض هو مكرها مدفوعا بخوفه ، فغسل دماءه عن وجهه وراح امام المرآة الكئيبة في عينيه ، يتحسس الاثلام التي تركتها الاظافر مشققة في جبهته وخده . ليست جراحا لطيفة ، ولكنها جراح كاوية ، بدأ دبيب الما يتغلغل في شرايين وجهه ويتوزع على كل رأسه ، جراح ليس فيها سوى لذة الانتقام . بلحظة انتقمت من كل الجراح التي فتحها في قلبها وجسدها . بلحظة انتقمت من خوفه ومن تردده .

ورماها بنظرة ! ما زالت مرمية فوق السرير بفوضى فيها صرخة اللذة حتى القتل . يغرز السكين في صدرها ، يشد عنقها ، ينكس الى جنبها بصفح وغفران ، لا طاقة له على الصبر والاختيار . تقدم منها بجفاف وقرف وسحبها من فخذها العاري كمن يسحب جثة أو حطبة . وبهدوء ممزوج بالرعدة والكبرياء رفضها .

سنتان انتهتا بنقاط دم ... انسفحت من وجهه دون ان تكون هناك عودة الى بداية جديدة .

وأغلق وراءها الباب . وعاد فغسل وجهه من جديد . كان الماء كاويا هذه المرة ومحرقا كالملح ، وعاد فتمدد فوق السرير وحاول ان يغمض عينيه . ولكن احداث سنتين استيقظت في ذهنه ولم ينم .

مومس حضرت اليه ذات ليلة فنقدها مالا ونامت حتى الفجر معه ولكنه لم يمسسها بدنس !

بعد أيام جاءته ثانية فنقدها مالا ونامت حتى الفجر معه ولكنه لم يمسسها بدنس !

لماذا فعل ذلك ؟ كل ذلك ؟ أي ضمير استيقظ فيه ؟ أي رادع حطم رجولته ؟ لا يدري !

اول عاهرة كئيبة صادفها ! كان حزنها هو الحاجز الذي انهدمت قابليته عنده ، فركع ولم يصلّ ، وقسى على ذاته فكفر بالحرمان .

كانت تذهب كما تدخل ، لا اسئلة ، لا استجواب . وتنحفر صورتها في مخيلته ووجدانه نافرة بعريها كانها محفورة على خشب الجوز .

ثالث مرة جاءته وهو يتناول الغداء في المطعم وقالت له :

ـ أريد ان اذهب الى الجبل . هل ترافقني ؟

فرد عليها بالايجاب . رفضت ان تأكل معه . كذبت وقالت له انها تغدت .

في الطريق سألها :

ـ أي جهة في الجبل تقصدين ؟

ولم تكن عندها جهة معينة ولا وجهة محددة . نظرت اليه نظرة صارخة معاتبة وأجابت :

ـ انا معك ولا وجهة لي !

وادرك انها ترد له الثمن ، تريد أن تتدنس بدنسه . تعطيه مما عندها على الاقل ، ان لم يكن كل ما عندها .

هو وحيد ، وهي وحيدة ، عاملها بكبر لا بقرف ، فعليها ان ترتفع من الوحل الى أعلى البرج ..

ترتفع من الفرج الى القلب . وأخذتها في الطريق الى احدى القمم رجفة برد ، فحاولت أن تلتصق به ، كان هو يقود السيارة ، فاشار عليها بان تتمالك نفسها ولا تتعجل . يرفض أن ينتحر على الطريق . يرفض ان يسفح لذته على الطريق ، يرفض ان يكون محرجا، ومغلوبا على أمره .

يداه رهينتا المقود وعاجز عن التصرف . تاح عليه . تلاحقه .لماذا؟ هو لا يريد عهرها . ويتردد عن قرع قلبها . قد يكون ابيض كقلب جوزة الهند ، قد يكون أسود غارقا في عفنه ، وشعر بخطوط واهية تحاك حوله وتكاد أن تصبح امراسا غليظة او اصفادا من الصلب .

فرضت عليه نزهة الى الجبل بابتسامة وبرغبة متناهية في البساطة .

هذا الانصياع الاختباري منه ما سببه ؟

* * *

اظافرها الطويلة مروسة ومطلية بالزهري،مغروزة في وجهه وعلى اطرافها دماء من دمائه .

لقد نزفت بين يديه بوحشية في منزله فوق القمة الخضراء ، ولعق هو كثيرا من الجراح التي خطها بلا وعي . ولا ينسى انها كانت خائفة ، ورفضت ان تخرج . طلبت منه ان يقتلها لتدفن تحت البلاط الذي يدوسه . ورفضت ماله . رفضت كل سخائه :

ـ المارينز يملأون الشوارع وجيوبهم ملأى بالدولارات .ونفوسهم عطشى الى الجنس . لو اردت مالا لما كنت بين يديك ، لما كنت تحتك، كنت رفستك ومشيت !

أجل بحارة الاسطول السادس كانوا يتنزهون في الربوع من اجل الحماية . الديمقراطية كانت مهددة ! والثورة مندلقة في السفوح وعلى القمم وفي الخنادق . ثورة بلا مبادىء ، ثورة بلا مطالب ، ثورة بلا اخلاق . احزاب خانت قضيتها . فئات أعلنت الولاء للغرباء . مواطنون انقلبوا على ذواتهم .

* * *

أشعلت سيكارة ، أطلقت ابتسامة . تناولت هي فنجان القهوة ورشفت منه وسألتني :

ـ أي فرح هذا ؟
ـ انه الفرح الحزين .
ـ انه يتكامل مع فرحنا وحزننا !
وأخـــذت تقـــرأ :

* * *

السكوت والمحبة
حطما وجهي ...
رؤيتي خرساء
نغم جامد
في جوف أرغن .
ابتسامة ساخرة
على باب قبر !

عندما توقفت علقت بعفوية :
ـ فلسطين يجب ان تكون القبر الذي تحقق فيه أعجوبة القيامة ! والا اصبحت اوطاننا مقابر لا رجاء لقيامة منها !

كانت يدها اليسرى ممدودة أمامي فوق المكتب ، فتناولتها ورحت ألاعب اصابعها ثم أرفعها وادفن شفتي في راحتيها .

ـ ما أصفاك وأنقاك .

داعبت كلماتها اذني ونفذت الى قلبي . ثم أكملت :

ـ من الافضل ان نستمر .
ـ فلنستمر ...

الهاتف يرن . أرفع السماعة وأكتب بلاغا آخر وأدفع به الـــى الاذاعة :

« الفشل ضار مع العدو المقدم من الجنـــوب . لا تزال مدرعاتنا ومدفعيتنا مشتبكة مع قوات العدو الالية المدعومه بالطيران على محوري الطيبه وبنت جبيل ـ بنين وبيت ياحون .. »

* * *

حملها الثعبان من القبر ومشى بها عـــلى الطريق الاسود ، تجر وراءها نعشا أخذت خشباته تتفكك من عناء السحل في الطريق ، وكانت كلما سقطت خشبة رمت عنها ازارا كأنما هي تفك قيدا او ترمي حملا .

وكوّمت حقدها وجلست على المقعد الجلدي وحولها الثعبان يلحق من دم ضحيته ، ثم ينعت ما يلعقه في جسدها فتزداد صمتا ، ويتلون الحقد في وجهها ، فتتمتم :

ـ سأنتقم ... قتلوه ... سأقتلهم جميعا ...

وتغرق في غيبوبة ... تتفعل ... تتنـــاول مسكرا ... تتناول مسكنـــات .

ويتفاعل في نفسها صراع آخر ، يأتيها شبحه في الليل بعينين قرمزيتين ، فتنحشر في الزاوية وتتهرب فيطاردها دون أن يمسك بها .

في الصباح قررت ان تطرده . تقتلع ذكراه . وضعت بيانو في غرفته . ودعت الاولاد للعزف عليه :

ـ أرفض ان يخيم الحزن على اطفالي .
في الحقيقة دفنت ذكراه تحت اصابع العاج !

بدلت اثاث البيت . بدلت ألوان الجدران ، ألوانه . اقتلعت الازهار ، أزهاره التي زرعها بيديه وأحبها ...

وعندما كانت الضفادع تنق حزنا عليه .. والكلب الـــذي عضه مرات ولم يؤذه ، يعوي سواء الشؤم في أبعاد الحديقة ، كانت تهتـز بهدوء موازين الذهب والفضة :

ـ سأعلق صورة له بالالوان على هذا الحائط الحجري ... سأقيم له تمثالا فوق المسبح الذي كان يغسل فيه همومه تحت شمس الربيـع والصيف (الصورة لم تعلق ، التمثال لم يقم) .

فجأة استحوذ عليها البخل وقبضت يدها على الفقر :

ـ لا مال عندي .

الحقد يتآكلها ، الثعبان يزداد سمنة ونفرها القناعة المبطنـــة بالادعـــاء :

ـ سأسحقهم جميعا . بقدمي هاتين سأسحقهم !

وأخذت تستثمر مناجم العطف والمحبة والصدق والولاء . تضرب معاولها في كل مطرح : هنا ننجح ، هنا نخفق . توقد ضحايا كالحطب في مدخنه المنزل ، بعضهم زاغ فانفذ رأسه ، بعضهم نهرب ، ولكـــن ما من احد الا وأصابته نقمة .

السياط تجلد الجميع . حولها دائما غبار وعـواصف وأشباح . دائما تهدم في زوايا القلعه بحثا عن نواويس وعظام وجثث محنطـة ، وكنوز كانت الجن تحضرها في مخيلتها كلما انفردت بها على الوسادة ، ليتحدث عنها الناس ، تكتب عنها الصحافة ، يتندرون بأخبارها فـي المجالس والسهرات . ومن رماد الجمر الذي تحرقه والدخان الـــذي ترسله تحاول ان تبني لها مجدا .

دائما تحاول ان تنفض عنها اثقال الرتابة والصمت :

ـ لا أريد زردا يطوقني .. لماذا هذا الصمت ؟ لماذا هذا الضيق ؟ بماذا هذه المقاصه ؟.. الا تسعرون معي ان هناك قصدا معينا لقاطعتنا ؟ لا أحد يزورني ! لا أحد يتصل بي ! سأجرجرهم كالكلاب بالزرد والطوق.

وفجأة يدور حولها الثعبان . فينفث في جسدها دما جديدا ... وتتبدل الاحوال .. الثعبان يبدل جلده وهي تبدل مناهجها واساليبها. تطلق كلابها .. تسحب من حقيبتها الجلدية أرجوزا من ابنـائها يسرح ويمرح ويهدد وينوعد . تعد بلغ سن الرشد وحرج من الوصاية ... قبل الاوان يطلقونه ، كالمارد يطلقونه ، ثم يعيدونه الى أنفاقهم . يضعونه في رف المخللات : تبعـــد أناسا باسم التغيير وتقرب أناسا باســـم التبديل :

ـ أريد ان أعرف .. اريد ان اسبر أعماقا .

عالم السياسة يلفظها ... عالم زوجها المتداخل المتشابك كالمصيدة المجهوله لن تدخله . الشرق العربي لا يأنس الى المرأة طالما أن الرجال قوامون على النساء . يجب ان يسترجل . غولدا مائير رجل العام في اسرائيل تلعب بمصير العرب الذين يحتقرون المرأة ... انديرا غاندي في الهند تسوس مئات الملايين ببشاشة انديسين ... بندرانيكه فـي سيلان تبطش ، كلابسي الجزمات ، تقتـــــل ، تحرق ، تنكل حتى بالحركات التقدمية .

الثعبان يتحرك ، يلعق من دم الضحيه ، وفي الليل يقاسمها الحقد في الفراش ، وينعت سمومه في جسدها .. وتستيقظ من خدر الغبطة المخدرة وتطلق كلابها .. اطلقـــوا الاشاعات .. اعطوني .. اختصروا النفقات .. أطردوا هذا « الخائن » .. اسحبوا ذاك « العبقري » .. هاتوا لي ذاك « النابغة » !

ـ لا عبقرية في البلد ، لا نوابغ في البلد ، تصطدم بمستنقـــع مجـــلد .

ثم تعود الى الوراء تحفر في الذاكرة ، في الملفات !

الماضي يبعث ... التسلي بقراءة البصمـــات مثير ، ملذ ، ومنعش خصوصا اذا كان قارئها من العارفين ، وخصوصا اذا كـانت بصمات رجال مروا في حياة مؤسسة أنفعل مصيرها اليها بغدر طائش وانها تسبر أغوار الرجال لتنتقم .

مخارج الضعف في يدها ... صور الرجال الذين تحاول ان تتعرف اليهم مهزوزة .. هم غائبون ، وهي تخزن اسماء دون تفصيل . عقلها الصغير لا يتسع للتفاصيل وللدقائق ، يهمها فقط ان تندرج في المخيلة صور باهتة تعطي الدليل على انها غنية بالمعلومات .

وفي الليل نامت مع ثعبان الحقد والكره . لاعبها ، دغدغهـــا ، استمتع بها ... انتشت الى ذروة الانتشاء والغبطة العارمة .

الثعبان يدور ... يعود الى نقطة البداية ، يعود الى القبر في ظاهر المدينة ، عند قلعة البحر وينام ... يأنس الى الورود والرياحين تحيي ذكرى .

لقد مضى خمسة وعشرون عاما .

* * *

ـ ما سمعتك قط بهذا الحقد . بادرتني مستغربة .

ـ الحقد في الوقائع لا في ذاتي .

ـ لا لزوم للتأكيد ، انا اعرف ذلك .

ـ ولكن الشيء الذي لا تعرفينه هو أنك تبعثين الموتى في ذاتي . تبعثين الدفء وتخلقين عالما .

ـ لا تذهب بعيدا واستمع اليّ ...

الهاتف يرن . أتناول ورقة وأكتب البلاغ رقم ٤ :

« وصلت طلائع العدو في القطاع الاول الى بلدة ياحون في محاولة لتطويق الطيبة من جهة الغرب .

بعد ان اوقعت قواتنا العدو من الساعة السادسة حتى الساعة التاسعة اضطرت الى القيام بفتال تأخيري باتجاه تبنين .

لا تزال قواتنا تقاتل بضراوة في جبهات الطيبة والعديسة .

يشترك طيران العدو بشكل كثيف حيث يقدر بـ ٢٥ طائرة في القتال الدائر على حدودنا الجنوبية ويقوم بقصف اهدافنا بالنابالم كما يحوم جزء من هذه التشكيلات في سماء بيروت حيث اعترضته طائراتنا المقاتلة واضطرته للانكفاء باتجاه الجنوب . كما قام بقصف مخيم النبطية بسرب من طائراته » .

ودفعت البلاغ الى الاذاعة ...

ـ هذه الوحشية تؤلمني ! قالت والدمعة في عينيها .

ـ لم تعد الاعتداءات تستفزنا ، وتحرضنا على الثأر ...

ـ هذا صحيح ... ولكنها تستهدف الآمنين والعزل ولم تعد اعتداء على اهداف ومواقع عسكرية .

ـ لا فرق .. لا فرق . لم تعد تستثيرنا للعطاء . حتى نقطة الدم لا نتبرع بها . بتنا ننظر الى الاعتداءات كما لو كنا ننظر الى مسرحية مملة .. بلا مبالاة .. ومضيعة للوقت !

ـ انت تكفر ...

ـ أقول الحقيقة ...

ـ لا تغرق في هذه اللامبالاة والانهزامية ودعني أكمل :

* * *

رأسي شجرة يابسة
على مرتفع أجرد !
قبر قديم فارغ ...
ذاب فيه الموت ،
يشتهي عظاما عطشى لجسد .
دربي أبعد من الكون .
في نفسي هوة !

* * *

ـ دعيني أرتمي في هوة نفسك .

ـ هذا انتحار .

ـ ربما كان اروع انتحار !

ـ تخطىء ، أروع انتحار هو الموت في سبيل الوطن !

كنت قد قمت من مكاني ، وانحنيت على عنقها أقبل أذنها ، فتحولني نحو شفتيها في عناق طويل حار ثم تبعدني عنها :

ـ هذا يكفي ... ابناؤنا .. يموتون ... جنودنا يستشهدون وأنت تتحمل مسؤولية ... ولاه عنها .

لا أرد ولا أكتفي ، فتبعدني :

ـ أعرف انك تنتقم من واقع !

ـ أجل ! لم أعط بندقية ورفضت ، ولم أدع وتناعست !

وعاودت تقبيلها بنهم :

ـ لا وقت للانسجام ... لا تنسجم ، لا تنس انك في مكتب عملك وعليك ألا تخلط بين لذتين : لذة العمل ولذة الجسد . اذهب الى مكانك وأسمعني ما في اوراقك الكئيبة .

* * *

كان رفيقي يحدثني طوال الوقت عن جبهات يسارية وحركات للتحرر وتململات للخروج عن ارادة الواقع الذي يعيشون فيه ولو جثثا في تابوت من الرصاص ! وكنت حائرا طوال الوقت اطرح السؤال على نفسي اولا وفي اعماقي ثم أسأله بعفوية :

ـ من سيطبق هذه الشؤون ويتولى تنفيذها عندكم وما سيكون دورك ؟

وكانت قناعته تجيبني :

ـ سيكون دوري كبيرا .

ـ ولماذا لا يكون لك دور الآن . انت محام ، لا بل أول رجل قانون في بلادك هذه الصغيرة الجميلة الجديدة .

ـ الغرابة تجني عليّ ، أنت تعلم ان آلع اسم بعد انحاكم ، هو اسم قريب لي ، فلا أريد أن أدرع الشكوك في رأسه ، ولا اريد ان يقال انني أستغل مركزه ومكانه .

ـ اذن النقاعس انت سببه ، نابع من قناعتك واستسلامك !

ـ لا تقس عليّ ، لو لم أكن متحمسا وأحب بلدي وأريد خدمته لما عدت ، لقد درست في الخارج وناضلت وشردت .. درست في القاهرة وطردت مع الطلبة العرب الذين طردوا منها نظروف وأسباب ، ودرست في المغرب ثم في الجزائر ، واخيرا في لندن ، وها انا هنا ، لماذا ؟ لاصرف رصيدا لي على خدمة الناس . هنا لم يتعودوا ، بعد ، القانون ، ولا رجل القانون . الاحكام هنا تعطى باسم الدين والاجتهاد العشائري ، لا تنس انني عنصر جديد تماما على بلادي وناسها ، حتى على قاضي الشرع ، فهو يعتبرني أفهم منه وأعلم ، لهذا منعني من المرافعة امامه والدفاع عن موكلي ...

ـ اذا كنت أنت عنصرا جديدا ، فالثورة من يحققها ؟ منذ متى عدت الى بلادك ؟

ونفخ ولم يشأ ان يدخن قبل ان يجيب :

ـ منذ سنة ، وأسست لي مكتبا ولكن ...

ـ وماذا تنتظر ... اذا لم يتقلب منطقك على العاطفة فأنت خسارة!

ونظر اليّ وابتسم :

ـ حتى الآن ... اجل انا خسارة !

وكنا نمشي في سوق ضيقة مغطاة بالاترنيت وارضها ما زالت ترابية المواطىء ، والنحر اللاهب يصفع وجهينا . وجسدانا دبقان بالعرق. هو يلبس ثيابا خفيفة جدا وانا أنتعل صندلا .

ومضت برهة صمت وتأمل وتطلع ، رافقتها تحيات الى اصحاب الحوانيت ، ثم التوى نحوي بقامته السمراء النحيلة ، ونظر الى طرف « الخور » الشديد الزرقة ، وقال بهدوء مشوب بالحرقة :

ـ لو كانت لنا اساطيل تملأ هذا البحر ، طبعا كنا في مستوى لائق من العيش ، أما هذه المراكب فليست في مستوى الحماية ، ولا قدرة لها على ان تصون راياتنا اذا نشرناها فوق السواري . مطامحنا لا تتعدى اطارا صغيرا محدد المعالم ... ليست ابعد من طريق مسدود نبقر به بطن الصحراء ، وطائرة صغيرة تافهة تحط في مطارنا الصغير، ومركب هزيل ينقل الينا مخترعات من الخارج ، ومواد مخدرة ومسكرا. مطامحنا صغيرة كواقعنا ، منمنمة وعارية كأقدامنا ، ونرضى بالقليل القليل من قطعة قماش نستر بها عوراتنا .

بالامس ، كنا نغوص على اعماق البحار والمحار لنستخرج اللؤلؤ ،

واليوم يعدوننا بالبترول ، هم يعدوننا ، بيدهم القدرة ، اما نحن فليس لنا واحد منا اكثر من يدين وقدمين ورأس .. هم باستطاعتهم ان يغوصوا في اعماق الصحراء ، اما نحن فلا نكاد نسير على وجه الصحراء .

ـ ولكنكم تأفمون عليهم ، ونحن نشارككم هذه النقمة .. وتريدون التخلص منهم .

ـ لانهم يعاملوننا معاملة القوي للضعيف ، لا معاملة الند للند ..

ـ هذه صرخة ظلامة !

ـ هذه صرخة للتحرر !

ـ بالامس كان الموقع الستراتيجي هو القيد ، اما اليوم فالبترول. أليس كذلك ؟

فأجاب بألم :

ـ كلها مصالح ، ومصلحتهم اولا ... وقبل كل شيء .

ـ من حقهم ؟!

ـ من خنوعنا ... نحن هنا منبوذون ، واخواننا موزعون على رفاع واسعة ، وبطاقات مختلفة ... بعضهم يطمح بالانقضاض علينا والتهامنا ، وبعضهم يطيب له ان ينكأ الجراح ، ليسمع صراخنا ونحن نتلوى من الالم .

واذا بصوت مؤذن يرتفع من على مئذنه حديثة انطراز ، رخامية القد ، غنية المسحة ، مصحوبة بالابتهال كهيولى الصوفيين : الله اكبر، الله اكبر ، الله اكبر ...

فنظرت الى احمد وتساءلت :

ـ هل الله بحاجة الى هذا البذخ ، وهل بيوت الله يجب ان تكون هنا اغنى من نفوس البشر ؟ ألا ترى معي ان ايمان المصلين هنا أقوى من ايمان المصلين في القاهرة وبيروت ودمشق وواشنطن ولندن وكراتشي ، واستانبول وباريس وغيرها ؟..

ـ تلك هي ارادة الحاكم .

ـ الارضي أم السماوي ؟

ـ دعنا من السماء .

ـ لا تكفر ... السماء جحيم الامل !

هكذا تدخلت ... وقبل ان اتحرك في مكاني !

رن الهاتف مجددا . بلاغ آخر :

« لا تزال قواتنا مشتبكة مع العدو ومتلاحمة مع قواته المدرعة على محور تبنين ـ السلطانية ـ بيت ياحون . ورغم كثافة طيرانه وسيطرته على اجوائنا فان قواتنا تؤخر تقدمه بجميع اسلحتها » .

وما كدت أعيد السماعة الى مكانها وأدفع بالبلاغ الى الاذاعة حتى رن الهاتف مجددا . بلاغ آخر رقم ٦ :

« لا يزال القتال مستمرا بعنف بين قواتنا وقوات العدو على محور بنت جبيل ـ تبنين . يقصف طيران العدو اهدافا متعددة دون ان ينزل فيها اضرارا جسيمة . كبدت قواتنا قوات العدو المهاجمة خسائر جسيمة في المدرعات والمجنزرات ، اخذ يخليها باتجاه محور صف الهوا ـ رميش » .

ـ هواء ساخن يلفحنا . هواء الحرية والفداء !

ـ صف الهوا . اسم لطيف لصورة لطيفة .

ـ ماذا يعنون : الهوا الذي نتنشق أم الهوى الذي يستميلنا وننقاد اليه ؟

ـ كم اود ان اتعرف الى هذا المكان في وطني واقف في صفه ! واسمعني :

الفجر ناعم ، في روح الليل
يتطاول للآباد ... لله !
مطرقي الرؤوس
نسير بهدوء
مواكب ساكتة
الى القبور .

* * *

شبحي منحن بصفه
مثقل صبور ،
يحمل جسمي ،
وظلي ، والخطايا ، والتابوت .

* * *

اشعلت لفافة وقمت من وراء مكتبي الى قربها ، أقبلها في اذنها وافتح النفمشة مجددا في قلبها .

ـ يكفي ...

ـ لا ادري أية قوة تشدني اليك !

ـ انا ايضا أحس بانجذاب قوي نحوك ، أعنف وأقوى من السلاسل المسعورة التي شدتني اليك فوق المرتفع !..

ـ لا تظني انك وحدك كنت تحلمين في تلك اللحظات ، كنت اشاركك احلامك ، وعذابك ، ورفضك للقيود ، وسعيك وراء الحرية .

يدها ما زالت في يدي :

ـ عد الى مكانك ، واقرأ لي من اوراقك ففي هذه الاوراق بعض العزاء والتكفير .

* * *

يرن الهاتف . بلاغ آخر :

« يستمر العدو بقصف بئر السلاسل وتل لوبيا وارنون وجسري القمقمية والخردلي . تهدم جسر القمقمية وجسر الخردلي من القصف. لا تزال قواتنا مشتبكة مع العدو »

ادفع به الى الاذاعة وأقفل الخط . ثم يرن من جديد بلاغ آخر :

« ما تزال مدرعاتنا مشتبكة مع مدرعات العدو بقتال عنيف على مشارف قانا . ألحقت بمعداته خسائر جسيمة . شوهدت تتقل باتجاه الجنوب » .

ادفع به الى الاذاعة . اصدر اوامر . أتلقى اوامر . اجري اتصالات مع عدة جبهات . ادخن سيكارة . أتهالك فوق المقعد ، سكران بذكريات الخمور المعتقة في أول أعجوبة !!

ـ يجب ان نكون هناك في الجنوب .

ـ اهل الجنوب ينزحون .

ـ هذا تقاعس .

ـ دعيني من المواعظ . نحن هنا أجدى وأنفع ... نحن نؤدي واجبا . يكفي ان يلعب كل واحد منا دوره بصدق وامانة ودقة .

ـ تظن ...

ـ انا واثق ومتأكد . قلت لك منذ البداية انني لم اتقاعس . ولم أتردد . نحن ننفذ خططا ولا نشارك في وضع خطط . نحن ننجر وراء الاحداث ، ولا نصنع الاحداث .

ـ هذا الاعتداء يهزني . اعماقي ترتجف . أكاد أنهار . أعداؤنا لو نفتك بهم بأسناننا . كنا أجهزنا عليهم .

ـ أوامر النهش لم تصدر .

ونفرت بي :

ـ أوامر ... أوامر ... أليس لك رأي ؟

ـ بلى ... ولكن رأيي لا يتعدى ان يكون حبرا على ورق ، ولاشخاص يتحركون على هواي في اطار الاسود والابيض . اسمعيني .

* * *

« أحسست بكلماته تهزني كما تضرب العاصفة القصبة فألتوي حتى أداني الارض ، ثم استعيد قوتي فأمثل واقفا وحادا كشهقة الموت :

ـ فناء ، فناء ، فناء .

كان الحد شفافا بين الحلم واليقظة ونثار الزجاج يتحطم تحت

الاقدام المحيطة ببقعة الدم ، والاودية الخضراء تردد صدى اجراس القمم تمتزج مع صوت المنشد يرتل سورة مريم .

عند قبره جلست وحيدة تناجيه ، هي لم تسر وراء نعشه ، ولا بكته امام الناس ، منذ اللحظة التي سقط فيها شهيدا تصلي وتدفن حزنها بتأمل .

كانت وحيدة جاثية عند قبره ، وكانت مفاجأة لي ان ارى امرأة غريبة تجلس عند قبره .

لا هي زوجته ، لا هي اخته ، لا هي ابنته ، لا هي قريبته . وترددت برهة قبل ان اقترب منها دون ان أحييها . نظرت هي اليّ من وراء خمارها الاسود ونظرت اليها بدوري من وراء دموعي ، ثم دارت عيوننا الى حيث ينام . بقيت واقفا بينما هي جاثية فوق التراب الساخن تصلي وتغمر قضبانا من الزنبق الابيض .

لاحظت انها كانت تناجيه ... ولكنني لم افهم ماذا كانت تقول .. ولزمت الصمت فلم اتمتم حتى بالصلاة .

وذهبت افكاري السوداء الى البحث عن سر المرأة المجهولة . في حياة الرجال العظام ، أكثر من غيرهم ، نساء مجهولات .

وحين وقفت ومشت لتخرج من عالم الاموات أدركتها بالسلام ، فنظرت اليّ بالغة ولم ترد ، ورأت هي حيرتي وارتباكي فباغتتني :

ـ تريد ان تعرف من انا وما هو سري ؟

ـ يسرني ذلك .

ـ مظهرك ملائكي ... ولكن نيات سوداء تعصف برأسك .

ـ انت تظلمينني . اجبت

ـ هل الاجنحة الغريبة صحون طائرة ؟ هل تحرك فيك فضول البشر حين رأيتني فنسيت ما جئت من اجله لتدوس حرمة الموت بمادة للثرثرة ؟

ـ صدقيني ... لا ! ان ذكراه أعز عليّ من حياتي .

ـ ليست هويتي مادة للثرثرة ، ولكني سأقول لك من انا في ما بعد ، وسأكتفي الآن بأن أروي لك ما حدث لي قبل مجيئي بلحظات : قليلون هم الذين يعرفونني في هذا البلد ... بعضهم زنى معي .. بعضهم تعفف حتى ألبله ، أنا لست متزوجة ولكني لست بتولا . منذ سنوات طويلة وانا أثور مع كل بلد . وأقود ثورته الى النصر ثم يبيعني كثيرون في سوق النخاسة بأرخص من جارية .

ـ اذن انت عاهرة . قاطعتها .

ردت بحدة :

ـ لا تقاطعني ، دعني اكمل ... منذ ربع قرن كان ضياع فلسطين ذروة الشهادات ، ومن اجلي مات كثيرون . أتعرف لماذا هم ماتوا ؟ ولماذا هو مات على هذه الصورة من اجل فلسطين ؟ لانه كان صاحب عقيدة وجهاد .

قاطعتها :

ـ لم أفهم ، انت من انت ، انك تسخريني وأسأل في سري هل انا في حلم أم في يقظة ...

ـ ارجوك ، استمع اليّ ... ما اقوله ليس حلما .

ـ انت هنا في ظاهر المدينة بين المقابر ... وحده مات من اجلي، ميتة شهادة ، وقد جئت اليه منذ الصباح بعد أن ادركت أن احباءه بدأوا يتعبون من الحزن عليه لاطمئن ولاسأله اذا كان بحاجة اليّ .

قاطعتها مرة ثانية :

ـ بحاجة اليك . احنا لك في العالم الاخر ؟

ـ اصمت قليلا ولا تقاطعني ببلاهة ، انا لست خليلة له ، انا روح مثله ...

ـ ولكنك جسد ايضا . قلت .

ـ ضقت بك ، دعني أكمل ! جئت اليه منذ الصباح ، وطرحت عليه عددا من الاسئلة ، وفيما كنت أنتظر الجواب سمعت حفيفا ورأيت الازهار والورود تتحرك فارتعدت وتراجعت قليلا ... لاول وهلة ظننت انه سيقوم ليتحدث اليّ ، ويجيب على أسئلتي ، وفجأة ازداد الحفيف، وتقهقرت قليلا ، ثم خرج ثعبان من بين الزهور بسرعة واتجه نحوي قليلا وما لبث أن ارتد باتجاه القبر .. ازداد خوفي وأخذتني قشعريرة وكدت اصرخ وأهرول هاربة ، ولكني ما كدت استدير لاهرب حتى اصطدمت بجسم لم أتبينه وسقطت مغميا عليّ .

وساد صمت غريب قبل أن تتابع :

ـ أفقت بعد مدة ـ لا ادري كم استغرقت ـ فلم أجد حولي أي جسم : لا من البشر ولا من الجماد ... فاستعدت شجاعتي وعدت فاقتربت من القبر ، وجثوت أصلي .

كنا قد وصلنا الى مدخل المقبرة فقلت لها :

ـ هل باستطاعتي أن ارافقك ؟

ـ لا ، شكرا ، سأذهب وحدي كما جئت ... سأعود من حيث اتيت ... فلا يراني احد .

ـ وهل أنت طريدة العدالة وتخشين الاخطار ؟

فابتسمت ثم خرجت عن وقارها وقهقهت :

ـ أنا ... لا ، انت مخطىء ، انا ملهمة العدالة !

ـ ولماذا تخافين الظهور ؟

ـ لا اخشى الظهور ، ولكني لا اركب الطائرة ، ولا الباخرة ، ولا السيارة ، ولا القطار في تنقلاتي ، أنا أنتقل بأجنحة غريبة !

ورحت أتمتم :

ـ أجنحة غريبة ... أجنحة غريبة ... أجنحة غريبة ... أكاد أجن ، هو في مكتبه حدثني عن الاجنحة الغريبة وهي هنا تحدثني عن الاجنحة الغريبة ...

ونظرت حولي فلم أجدها ، فرفعت صوتي انادي عبثا ، ثم بغتة سمعت همسا قريبا مني :

ـ نسيت أن اقول لك من انا ... انا حريته ، حريتك ، حريتكم جميعا ... انا فلسطين ...

كان الحد شفافا بين الحلم واليقظة وانثار الزجاج يتحطم تحت الاقدام المحيطة ببقعة الدم والاودية الخضراء تردد صدى اجراس القمم تمتزج مع صوت المنشد يردد سورة مريم والناس بالالوف تجمعوا بالحداء والندب والنواح ، بالمزمار والطبل والصنوج ، وبحملة الاعلام والبيارق والسناجق ..

تجمعوا تحت الشمس ليحيوا ذكرى حرية ماتت فلم ينقذوها ولم يثأروا لها ، كانت اكبر مما تتسع قلوبهم وايديهم وارادتهم .

وفي الفسحة الترابية المهجورة البائسة جثم تابوته فارغا فالتف حوله الاطفال ببراءة وشراهة ينظرون اليه لماعا يغوي وبراقا يجذب ويسحر .

كانوا ينظرون الى داخله من الكوة الزجاجية فتشدهم اليه نعومة الحرير والطيلسان الذي لف به في الداخل ، واذا بأحدهم يتجرأ فيفتح الغطاء ، ويتجرأ آخر فينزل فيه ثم يخرج ، ويتجرأ ثالث فينزل فيه ويتمدد : في التابوت تحسس نعومة المهد الوثير الذي لم يره في شقائه ولم يعرف به .

وكان التابوت فارغا لان الحرية ضاعت منه ... وكان الفناء أقوى من المهود .

والاجراس تقرع وتقرع وتقرع احتفاء بميلاد جديد لم يقو عليه الموت ...

ـ التتمة على الصفحة ـ ١٣٣ ـ

ابعاد بلا وطن

ـ تابع المنشور على الصفحة ٤٨ ـ

ـ خرجت عن طورك .
ـ لا .. عالمي يتكامل بفنائه .
ـ غريب أنت ، كرفيف الاجنحة التي حدثتكوناجتك ثم هربتمنك.
الهاتف يرن :
أتناول السماعة وأنصت مصعوقا . البلاغات العسكرية تتتالى . العدو يتوغل في وطني . والبلاغ العسكري الخامس عشر ينص على ان مجموع خسائرنا في الاعتداء قد بلغ بين ٦١ ما بين قتيل وجريح ومفقود من القوى المسلحة وحدها .
أهدأ قليلا . اشعل لفافة . اضرب الطاولة بكلتا يدي ، تهدئني بصوتها يتهادى الي :

* * *

على شفير الكون تمتد هوة حمراء
اعصابي تتجمد
تكامل أصفر
خطوط محددة في غيب ،
مضعضعة بالاسود
خيالي يتطاول ، يصدمه فراغ
قدم في العدم ، كف في البدء

* * *

وأية بداية ... تلك التي تعنين ؟ انها نهاية النهايات .
اسمعي :
ذهني ممزق ، فلتّعه السم .
جلدي يابس ملتصق بعظامي ، ضيق على جسدي ... على مرمى يدي زجاجة ويسكي من نوع رديء أكرع منها بنهم وبذاءة ، بينما تجمدت الشراشف تحت جسدي والتفت على بعضها منكوية باحتراقي الداخلي :
ـ لماذا انا عدت ؟ لماذا اعود ؟ لماذا سأعود ؟
الوشوشات تصطدم باذني اجراً من الهمس وأجبن من الصراخ .
بين انهزيمة والرفض بقائي تكريس للهزيمة ، عودتي رفض للهزيمة .

←

اني انتصر عليهم . انتصرت ، بصمتي ، على السلطة كلها !
ـ اعترف ، وانج بنفسك !
هناته وئام المعراوي على صموده . ولكن اباه الشيخ وامه العجوز لاحا له مذهولين .
ـ اعترف . ان صمتك يقطع اوردتي !

(١١)

ساوره الخوف .
خشي ان تفيض روحه بين ايديهم ، فيضيع كتابه الموعود !
والجلاد الغضوب يلوي عليه ببسطاره :
ـ تكلم ، يا ابن العاهرة ...
ويهوي عليه ببسطاره :
ـ انة واحدة ، آهة ، وانا اكف عن ركلكبقدمي !
كم من مسيح ، في سجون عصرنا المتحضر ، يصلب ،يقتل، في كل ساعة !
والغضوب يتوسل اليه ، وقد بح صوته من اجهاد :
ـ أنا ، أيضا ، انسان . اني حزين من اجلك . تكلم...
ويركل ، ببسطاره الثقيل ، الصدر ، والخاصرة ... ويدور حوله ، ليركل ، ببسطاره الثقيل ، الصدر ، والخاصرة ،والقلب ..
ـ ان صمتك يجرحني ، يقتلني ، ايها العنيد . تكلم ، ارجوك.
انا ، أيضا ، انسان . ان لي اولادا احبهم . انا احبك ...
وتراءت له ونام المعراوي ، منحنية على نعشه تبكي ، ومن ورائها امه وابوه .
وهو ، في نعشه ، قد فقد رجاءه الكبير : ان يؤلف كتابه !

(١٢)

أفلت ذو الرداء الابيض اليد النحيلة :
ـ قد مات !
أطلق الغضوب صرخة دوت :
ـ آه ! كم توسلت اليه أن يتكلم ، ان يئن ... فما انفرجت شفتاه !
وانهار يبكي ، كطفل فقد امه :
ـ قتلته ! قتلني ! كم كنت احبه ! آه ...
ـ انت قصّرت في ان توضح لهم الحد الذي ينبغي ان يقفوا عنده .
دافع ذو الرداء الابيض :
ـ ولكن الركل بالبسطار ، في حالة غضب هستيري ، لم يكن من الاقانين المنبعة !
ـ ان من حق الجلاد (وخبط بقبضته على طرف المكتب)انيغضب ازاء الصمت ! ان من حقه ان يحنق ، ان يثور ... وعندئذ يخطيء في تقدير مدى احتمال الذين بين يديه . الجلاد انسان ، يخطيء في التقدير احيانا .

(١٤)

مع سقوط شعاعات الصباح الاولى ، انقلب الوجوم في العيون المتعبة الى ارتياع :
لقد عثروا على الفاعل الحقيقي !!!!..

(١٥)

لم يصدق الشيخ الطاعن آذنيه ، لا ولا صدق ما ترى عيناه... وكمجنون لحق بهم :
ـ نعم ؟! ماذا تقولون ؟.. لم اسمع !.. ماذا جرى لولدي الاصفر ؟! ولكن مهذب ، كما نعرفه ، مسالم ، وديع ! قلتم ، قبل اليوم ، ان اخاه متطرف ، ثائر ، فوضوي ، فسددتم الى قلبه الرصاص ! ولكن ابننا الاخر ، ماذا فعل ؟..
وارتد ، بنظره الكليل ، الى الجثمان المسجى :
ـ عائشة ! اين أنت ، يا عائشة ؟ تعالي فاشهدي . لقد قتلوا ، الاوغاد ، ولدك الاخر ! يقولون كان ذلك منهم « خطأ في الظن » ، ثم كان « خطأ في التقدير » ! أنا لم أفهم ما قالوا ...فهل فهمت انت ، يا عائشة؟!
وفطن الى ما أودعوا في كفه :
ـ أعطوني ، يا عائشة ، قبضة من مال ، انظري ! ويلهم ، لقد اعتقدوا ان في وسع الوالدين ان يطعما بثمن دماء ابنائهما الى يوم الدين ! أي قدر حل بأسرتي ؟!
وانحنى على الجثمان ، يتلمسه براحتيه ، ويبكي .

فاضل السباعي

متراخ كدودة لا عصب فيها ... وليست لها قضية . جسدي عار كجلد ثعبان يلمع بدهن الشبق والمتعة . منهار تحت عري انثى تسوقني بشجاعة فرسان القرون الوسطى حصانا مكسورا يصهل ولا يركض .

المرآة الكبيرة في الزاوية وجود اخر يعكس الحركات بشكل ببغاوي اخرس ، ويبقي سر اللهاث والانفعالات فوق الوسادة المحشوة بريش النعام تشوى كما تشوى الفراشات والاجساد الثعبانية .

ـ لا تخطىء ... تناسى العودة ولا تلح عليها . ستندم ... كما ندمنا نحن ابناء فلسطين الذين زرعتنا النكبة في كل فج عميق ... فاذا العودة نكبتنا الثانية وما ابشعها .

ـ غدا تألف الغربة ، تألف الارض ... انت اليوم هارب من غربة الى غربة .

ـ لا ، لا ... انت اليوم بدون وطن ... غدا اصبح مثلك بلا وطن ... اذا طالت الغربة غزاها النسيان .

ـ كل مكان ينبت العز طيب . رجالنا ضيعوا فلسطين سعيا وراء الجنس ... ونحن نحاول ان نستعيد هذا الوطن بالمال يسفح على الجنس .

وكشرت بضحكة تفتحت لها كل منافذها .

ـ ذاعرة وتضحكين ؟

ـ أبكي ولماذا ؟ الهزيمة ؟ انت تكتبها على نفسك ، بنو قومك كلهم كتبوها على انفسهم بارادتهم تماما كما يكتب الفرسان الغلبة والنصر.. وكانوا ابطالها . انا ما دعيت ورفضت الدعوة . انا ما ادعيت وتخاذلت.

ـ شجاعة المواجهة يا ساره من اين تأتينا ونحن مجرورون كما تجر الاذيال في اقفية الزمن ؟ انا ارفض واقع الذيلية ، لهذا سأعود .

ـ تحملت مشاق النزوح وها انت قد انزرعت هنا . وتعيش عزيزا كريما ... لماذا لا تعترف بانك هنا تعيش افضل مما كنت تعيش في وطنك .

ـ بقائي هنا هزيمة ... لقد اخترت بنزوحي سبل الخطأ وعليّ ان اصححه قبل فوات الاوان . العودة متيسرة ما زالت بقايا مني موجودة في وطني . جذوري لم تقتلع . اذا عدت الان يعود لي ظل دفيء.

ـ الا تخشى الموت ... الا تخشى الاضطهاد ... الا تخشى العذاب ؟

ـ الموت . العذاب . الاضطهاد . السنا هنا في مدينة بيوتها مقابر ؟ اليس اضطهاد الجهل اشد مرارة وعنفا من الاضطهاد العنصري ؟ اليس عذاب النفس والضمير هنا اشد ايلاما من عذاب الجسد وكل الديكتاتوريات في العالم ؟!

أصحيح ما تقول ؟ أنا لا أحس بهذه الفوارق . انا مقيمة هنا منذ عشر سنوات واكثر ، لم الحظ ابدا هذا الجحيم الذي تتحدث عنه ..

ـ انظري الى النافذة ... اي سماء صفراء ترين ؟ اي رياح تسمعين ؟ اي غبار عاصف يقهر الرؤية حتى الصفر ؟ اي رماد انعم من رماد القمر ينسرب الى رئتيّ ورئتيك ؟

وتناولت محرمة من ورق وبصقت ، صلصالا احمر بصقت ...

ـ آه لو تمطر ... اذا امطرت انفرجت .

وضحكت بهزء ومرارة ثم عدت اجلس على طرف السرير واردد :

ـ ليت الغبار يتجمد في الفضاء أصفر الى الابد ، فنبقى جميعنا أسرى الرؤية الصفر ... رؤية اللامرئي ، وتتجمد كل الرؤى والخيالات والبشاعات والجمالات ، وتتجمد عيوننا وعواطفنا وانفعالاتنا على العذاب المحنط الذي ينتظرها كما جمدت حمم بركان ستروميولي اهالي بومباي بمباذلهم .

والتفت اليها :

ـ ما بالك لو التقطت لك صورا عارية ؟

ـ خلاعية ؟

ـ هذه اللحظات الحقيرة التي نعيشها الآن لو جمدناها صورا .

ـ التقط ما تشاء .. صور ما تشاء .. جمد ما تشاء .. فما انا سوى حالة جامدة .

وانتابتني ضحكة ، قهقهت :

ـ عشيقة تملأ الفراغ ، عشيقة تمسح الغربة ... تنسى الوطن والاولاد والزوجة والاقرباء وكل الهموم والمتاعب . لو كانت لك عشيقة لما فكرت بالعودة . ليس افضل من العشيقة ، تريح الاعصاب . تشرح الصدر .

كان يرددها على مسمعي صديق لي :

ـ الوحدة مهمازك للعودة . انت في العمل لا تفكر بالعودة ، انت في مباذلك لا تفكر بالعودة ، فكرة العودة لا تستأثر بك وتستحوذ عليك الا عندما تكون وحيدا في البيت ، وعندما ينفرد بك الفراش ليلا وفي ساعات التأمل والتجلي .

ـ لا شيء ينسيني العودة ... لا شيء .

* * *

جرس الهاتف يرن . الباب يفرع . بلاغ عسكري آخر يصدر :

« سبعة اشخاص تقلهم سيارة مرسيدس تعرضوا لابشع حادث قتل اذ قام جنود العدو بدهس السيارة ومن فيها باحدى دباباتهم بشكل وحشي ، وبعد ان مرت الدبابة عليهم عادت فكررت المرور مرتين فوق السيارة ومن فيها وقضي على افراد العائلة جميعا من اطفال وشيوخ واصبحت السيارة ومن فيها قطعة مسطحة من الحديد وبداخلها الجثث المقطعة للعائلة المنكوبة » .

وشهقت ، قفزت من على كرسيها تولول : وحوش ، وحوش ، ثم استرخت تردد في شبه غيبوبة :

* * *

يا من سرت على دربي
الى صومعتك الابدية
يا من ذبلت في جسمي
وتلهيت بانفاسي
لتموت في خلقك ...
يا من تألمت بدموعي
وبكيت بآلامي ...
جبل الزيتون والجلجلة
صداي الحقيقي

* * *

الصورة معتمة بادىء الامر ، الهاتف يرن . باب المكتب يقرع . صوت المذيع يتهدج ، والجماعة كثر ... المكان فسيح ، مهرج في وسط القاعة . واذا بي ابتعد ... اطلب ملجأ لي في احدى الزوايا النائية . بشعور الخارج على الجماعة ابتعدت . ومددت يدي لارفعها اليّ ، لانصفها ، فصفعني . لم يبق سوى الاخضر والازرق واليدين المستفيشتين ترافقني في طريق الصدفة نحو ابعاد لا وطن فيها .

بيروت

جورج شامي